

## الأخلاق السياسية في فكر أبي عبد الله ابن الأزرق الأندلسي

د. رضا شعبان

جامعة باتنة 1

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى بيان منزلة الأخلاق في السياسة، والتأكيد على ضرورتها في تحقيق التوازن بين مصالح الناس في دولة المسلمين، وذلك من خلال الآراء والأفكار التي أودعها أبو عبد الله ابن الأزرق كتابه: "بدائع السلك في طبائع الملك".

حيث جعل . رحمه الله . للأخلاق السياسية بابا خاصا؛ سماه: "في الصفات التي تصدر بها تلك الأفعال على أفضل نظام"، وجعلها في شكل قواعد، وأفرد لكل قاعدة منها بعضا من صفحات كتابه، ليرشد الملوك والحكام إلى ضرورة هذه الصفات في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وقد برع في الربط بين هذه الأخلاق، فأقامها على أربعة مقدمات؛ حدد فيها أثر الأخلاق في نفوس الناس، ونبه إلى قابليتها للتقييم والتقويم، وبيّن الأصول التي تستقى منها فضائل الملك (الحكمة والشجاعة والعفة).

Abstract:

This search aiming to illustrate the degree of ethics within politics; and confirming the necessity of ethics on the equivalence of human being interests within islamic state, depending on the openions and ideas if "Abu Abdallah Al Azraq" in his book "Badaie Assulq fee Tabaie Al Mulq".

He put a special chapter to politics' ethics, named "On the Aspects Which These Actions proceeded on Best System", he put them as rules, and set apart to each rule somme pages of his book, aiming to guide the kings and rulers to the necessity of these aspects on the protection if religion and ruling the state.

**مقدمة:**

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين؛ سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإنّ الأخلاق ميزان التفاضل بين أفعال الإنسان وتصرفاته؛ فالفعل الحسن مرجعه إلى أخلاق حسنة، والفعل السيء مرده إلى أخلاق سيئة، ولا يمكن للمرء التجرد من أخلاقه ومنع ظهور آثارها في تصرفاته، مهما اجتهد في إخفاء حقيقة نفسه وستر معايبها.

واستناد السياسة على الفضائل يجعل من أحكامها منبعاً للرشد والصلاح في المجتمع والدولة، واتكاؤها على الرذائل يورد الأمة المهالك؛ فلا مناص من الاعتدال والالتزام بالأخلاق في السياسة، وتأثيرها في تصرفات الساسة، وظهور أثرها في الأفعال والأقوال.

ولقد شدّد بعض فقهاء الإسلام في الربط بين الأخلاق والسياسة، وحرصوا على ترشيد تصرفات ولاة الأمور، بتوجيههم إلى التحلي بالمحاسن واجتناب المساوئ؛ فأبدعوا في ظهور فن جديد تحت مسمى "مرايا الأمراء" أو "تصائح الملوك".

أبو عبد الله ابن الأزرق أحد الذين برعوا في هذا الفن؛ فاجتهد في ترشيد السياسة، وأبدع في ربطها بالأخلاق، لجلب النفع وتحقيق الصلاح، وذلك في كتابه الماتع "بدائع السلك في طبائع الملوك".

**أولا/ إشكالية البحث:**

استنادا إلى ما سبق؛ يمكن تحديد إشكالية هذا البحث في الأسئلة التالية:

ما المقصود بالأخلاق السياسية؟ وما المؤثر منها في تهذيب السياسة عند ابن الأزرق الأندلسي؟ وما أهم الخصائص التي خصّها بها في كتابة البدائع؟

**ثانيا/ أهداف البحث:**

نظرا لأهمية الأخلاق في السياسة عند المسلمين، ودورها الفعال في ترشيد تصرفات ولاة الأمور، جاءت فكرة هذا البحث بقصد الإشادة بضرورتها، والتنبيه على خطر الغفلة عنها وإهمال الأخذ بأحسنها.

وكذا لحثّ رجل السياسة المسلم على تتبع صحيح الأخلاق، والابتعاد عن سقيمها في ممارساته المتعلقة بإدارة شؤون الدولة؛ وذلك بالتزام سبيل النبوة الهادية، والتأسي بنهج الخلافة الراشدة، والاستفادة من خبرة الحكماء، وتتبع أقوال العلماء في هذا الباب، للرفي بدنيا المسلمين، وإخراجهم من حال البؤس والتّيه التي صاروا إليها، بسبب عدم أهلية السّاسة حيناً، وانحراف تصرفاتهم عن مكارم الأخلاق الإنسانية أحيانا أخرى.

**ثالثا/ منهج البحث:**

يُعدّ المنهج الوصفي أكثر المناهج ملاءمة ومواءمة لمعالجة مثل هذه الإشكالية في الأبحاث والدراسات العلمية؛ فهو يرتبط ارتباطا وثيقا بعملية جمع المعلومات وتلخيصها وتصنيفها وتقسيمها.

**رابعا/ خطة البحث:**

قسّمت البحث إلى ثلاثة محاور رئيسة؛ وذلك لغرض تحقيق الهدف المنشود:

ضمّنت الأول التعريف الموجز بأبي عبد الله ابن الأزرق الأندلسي. وبيّنت في الثاني ضبط مدلول الأخلاق السياسية.

وجعلت الثالث في الحديث عن الأخلاق السياسية وخصائصها عند ابن الأزرق. وأنهيت البحث بخاتمة جمعت فيها أهم النتائج والتوصيات.

**المحور الأول: التعريف بأبي عبد الله ابن الأزرق الأندلسي:** يتناول هذا المحور التعريف الموجز بمولد ابن الأزرق ونشأته، والحديث عن كتابه البدائع، وذكر وفاته . رحمه الله ..

**أولاً/ مولده:** ولد أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي بن قاسم بن مسعود بن الأزرق، الحميري، الأصبجي، الأندلسي، الغرناطي، المالقي، سنة 831 هـ، ببلدة مالقة، وهي إحدى ولايات غرناطة على عهد ملوك بني نصر، وقد سقطت هذه البلدة بأيدي الإسبان سنة 892 هـ، بعد قتال شديد بين الإسبان والمسلمين<sup>(1)</sup>.

**ثانيا/ نشأته:** نشأ ابن الأزرق بمسقط رأسه مالقة، وبها ترعرع في رياض العلوم والمعارف؛ فبدأ بحفظ القرآن الكريم وبعض المصنفات العلمية والأدبية، حسب عادات أهل الأندلس في التربية والتعليم آنذاك، ومن خلال كتاباته نستدل على أنه نشأ في بيت دين وعلم وعفة، حيث كان اهتمامه كبيرا بالسلوك والأخلاق<sup>(2)</sup>.

شغل ابن الأزرق طوال حياته أربع وظائف، حيث تولى منصب القضاء في بعض بلاد المسلمين، نذكر منها: غرناطة والقدس الشريف؛ فكان الناس عن

1- ابن الأزرق، أبو عبد الله محمد بن علي: بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ليبيا. تونس، ج1، مقدمة المحقق، ص9-11.

2- المصدر نفسه: ج1، مقدمة المحقق، ص11.

أحكامه راضون، وشغل رحمه الله وظيفة السفارة، ما مكنه من زيارة تلمسان وتونس والقاهرة، وتطوع لممارسة وظيفتي التدريس والإفتاء، فكان له تلامذة أبرار، ومقدرة فقهية وأصولية<sup>(1)</sup>.

له مؤلفات عديدة منها: شرحه لمختصر خليل سماه "شفاء الغليل"، وكتاب "روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام"، و"الإبريز المسبوك في كيفية أدب الملوك"، وزيادة على هذا له تقايد مفيدة وفتاوى نافعة<sup>(2)</sup>.

**ثالثا/ التعريف بكتاب بدائع السُّلك في طبائع الملك:** ترك لنا ابن الأزرق كتابا لا يقل أهمية عن ما جاء به ابن خلدون في المقدمة، سماه "بدائع السُّلك في طبائع الملك"، يضعه البعض في منزلة المقدمة، ومنهم من يفضله عنها في نواح كثيرة، حيث أن هناك من يعتبره "أعظم كتاب في الاجتماع والسياسة لدى المسلمين"<sup>(3)</sup>.

والمتصفح لكتاب البدائع يجد أن كثيرا من المواطن يتشابه فيها كلام ابن الأزرق مع سابقه ابن خلدون؛ "لقد انتفع ابن الأزرق في بدائع السلك من سابقه، فهو تمثل الكتابات الاجتماعية والسياسية التي وصلت إليه عبر الفكر الإسلامي المتفلسف (إخوان الصفا، الفارابي، ..)، ومن خلال تراكم الفكر الفقهي المنصب على القانون العام والأمور الإدارية، والوظائف الإجرائية، وسلطات الدولة ومسار عجلاتها (الغزالي، الماوردي، الطرطوشي)"<sup>(4)</sup>.

ويقرر البعض أن "ابن الأزرق تجاوز ابن خلدون أو لخصه، واستعان به بوضوح

1- المصدر نفسه: ج1، مقدمة المحقق، ص13-23.

2- المصدر نفسه: ج1، مقدمة المحقق، ص23-24.

3- ابن الأزرق، أبو عبد الله محمد بن علي: بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق سامي النشار، بغداد، 1977، ج1، مقدمة المحقق، ص50.

4- عبد الأمير شمس الدين: الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق، ص98.

جريء في أفكار كثيرة، بل وردد أحيانا كلمات وجمل من المقدمة<sup>(1)</sup>.

والمؤكد أن "قيمة هذا الكتاب تتجلى في اختيار المصادر النفيسة، التي لخصها ابن الأزرق أو نقل عنها ما هو في حاجة إلى نقله حرفيا، ويزيد في قيمته عندما توجّه بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وأقوال الحكماء"<sup>(2)</sup>؛ فكانت أفكاره مترابطة ومتناسقة تناسقا لا اختلال فيه.

يتحدث ابن الأزرق في كتابه عن حقيقة الملك والخلافة وسائر أنواع الرئاسات، وعن ما يطالب به السلطان تشييدا لأركان الملك وتأسيسا لقواعده، وعن واجبات السلطان، وذكر أمورا جمّة تدرج ضمن علمي الاجتماع والسياسة، والكتاب جدير بعناية الباحثين لسبر أغواره، وكشف أسراره، واستخراج قواعده، واستنباط أحكامه.

ونجد أن ابن الأزرق يصف مضمون مؤلفه في مقدمته بقوله: "إن من أشهر ما علم عقلا وسمعا، وجمع فيه شروط القبول لبرهان المقبول جمعا، أن الملك صورة العمران البشري، وقراره ومعناه الذي تشتمل عليه فوائد الاحتياج إليه وأسراره؛ واني لما رأيت من ذلك ما هو أنور من شمس الظهيرة، وأجلى في الظهور عند الخاصة والجمهور من القضايا الشهيرة، قصدت إلى تلخيص ما كتب الناس في الملك والإمارة، والسياسة التي رعيها على الإسعاد بصالح المعاش والمعاد أصدق أمارة، على نهج يكشف عن محيّا الحكمة قناع الاحتجاب، ويأتي في تقريره لتهديب ما فصلّ، وتحريره بالعجب العجائب، لأتحف به من تشوّف لهذا الغرض، ولم يعدل فيه من الجوهر إلى العرض، من أمير

1- المرجع نفسه: ص98.

2- ابن الأزرق: بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد بن عبد الكريم، ج1، مقدمة المحقق، ص43.

صدقته فيه رغبته وظهرت، وأمور وضحت له دلائل الإفادة به وبهت.

ولما اشتمل على كثير من أحوال الملك والدول، وأمتع في إيراده لمختار مراده من حكم الأواخر والأول، وأبدى من أسرار الخليفة عجائب غريبة، وقرّر لها من برهان العقل السليم ما كفاه في التسليم الشكوك المريبة، سميته: بدائع السلك في طبائع الملك<sup>(1)</sup>.

رابعاً/ وفاة ابن الأزرقي: توفي ابن الأزرقي . رحمه الله . سنة 896 هـ في القدس الشريف، بعدما بلغ من العمر خمسا وستين سنة<sup>(2)</sup>.

**المحور الثاني: ضبط مدلول الأخلاق السياسية: الأخلاق قوام أفعال الإنسان، وهي منبع الحسن والقبح في تصرفاته، وقبل بيان مدلول الأخلاق السياسية، يحسن بنا التعرّيج على ذكر تعريف الأخلاق في اللغة والاصطلاح.**

**أولاً/ تعريف الأخلاق في اللغة:** إنّ الأخلاق في لغة العرب جمع (خُلُق)، وتطلق على سجية الإنسان، وطبيعته التي خلق عليها؛ قال ابن فارس: "... الخُلُق، وهي السجية، لأنّ صاحبه قد فُدر عليه"<sup>(3)</sup>.

وقال ابن منظور: "الخُلُق بضم اللام وسكونها: وهو الدين والطبع والسجية"<sup>(4)</sup>.

وبين المقصود به فقال: "وحقيقته أنّه لصورة الإنسان الباطنة؛ وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخُلُق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقيحة، والثواب والعقاب يتعلّقان بأوصاف

1- المصدر نفسه: ج1، ص58-59.

2- المصدر نفسه: ج1، مقدمة المحقق، ص10-14.

3- ابن فارس، أبو الحسن أحمد: معجم مقاييس اللغة، ت محمد عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ، ج2، ص214.

4- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، ج10، ص85.

الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة<sup>(1)</sup>.

وقال الراغب الأصفهاني: "الخُلُقُ والخُلُقُ... في الأصل واحد لكن خص الخُلُقُ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخُلُقُ بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة"<sup>(2)</sup>.

**ثانيا/ تعريف الأخلاق في الاصطلاح:** عرّف أبو حامد الغزالي - رحمه الله - الخُلُقُ بقوله: "عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تَصَدُرُ الأفعال بسهولة ويُسرٍ من غير حاجة إلى فِكْرٍ وروية"<sup>(3)</sup>.

وذهب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور إلى تقرير هذا المعنى؛ فقال - رحمه الله -: "الخُلُقُ في اصطلاح الحكماء: مَلَكَةٌ؛ أي: كيفية راسخة في النفس؛ أي: متمكّنة في الفِكر، تَصَدُرُ بها عن النفس أفعالُ صاحبها دون تأمّل"<sup>(4)</sup>.

هذه حقيقة الأخلاق عند الحكماء والفقهاء؛ فهي صفات نفسية، تكون مصدرا للفعل، وباعثا عليه، لكن يجدر بنا التنبّه إلى أنه: "ليست كل الصفات المستقرّة في النفس من قبيل الأخلاق، بل منها غرائز ودوافع لا صلة لها بالخُلُق، ولكن الذي يَفْصِلُ الأخلاق ويُميِّزها عن جنس هذه الصفات كون آثارها في السلوك قابلة للمدح أو للذم؛ فبذلك يتميِّز الخُلُق عن الغريزة ذات المطالب المكافئة لحاجات الإنسان الفطرية"<sup>(5)</sup>.

1- المصدر نفسه.

2- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: مفردات غريب القرآن، ت محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، ج1، ص158.

3- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ج3، ص53.

4- ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ج9، ص171-172.

5- عبدالرحمن حبنكة الميداني: الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، سوريا، ط5، 1420 هـ - 1999م، ج1، ص10-11.



وبذلك يكون الفرق الجوهرى بين الخلق والغريزة متمثلا في القابلية للمدح والذم؛ فآثار الخلق يمكن إخضاعها للتقويم والحكم عليها بالحسن أو القبح، وأما الغرائز فلا يمكن إخضاعها لذلك لأنها صفات جبلية فطرية في الإنسان.

ويمكن أن تكون الأخلاق قابلة للتعلم والاكْتساب أيضا؛ فقد تكون طبيعية في أصل خلق الإنسان، كما يمكن أن تكون كسبية ناشئة عن تمرن فكر أو تقليد.

قال ابن عاشور - رحمه الله -: "خُلق المرء مجموعة غرائز (أي: طبائع نفسية) مؤتلفة من انطباع فكري إما جبلي في أصل خِلقته، وإما كسبي ناشئ عن تمرن الفكر عليه وتقلده إياه لاستحسانه إياه عن تجربة نفعه، أو عن تقليد ما يشاهده من بواعث محبة ما شاهد، وينبغي أن يُسمى اختيارًا من قول أو عمل لذاته، أو لكونه من سيرة من يحبه ويقتدي به، ويُسمى تقليدًا، ومحاولته تُسمى تخلفًا"<sup>(1)</sup>.

**ثالثا/ تعريف الأخلاق السياسية:** استنادا لكل ما سبق يمكن القول أنّ المقصود بالأخلاق السياسية: جملة الصفات النفسية التي تكون مصدرا لتصرفات ولي الأمر، وباعثة عليها في معرض تدبيره لشؤون الدولة.

هذا بصفة عامة؛ وإذا أردنا التدقيق فإنّ الأخلاق السياسية يمكن حصرها في القول بأنّها: جملة الفضائل التي يلزم ولي الأمر التحلي بها، أثناء سياسته لشؤون الأمة، بما يحفظ أمورها الدينية، ويصلح شؤونها الدنيوية.

واضح من خلال هذا التعريف الأخير، أن الأخلاق السياسية المقصودة في ثنايا هذا البحث، هي الفضائل التي تكون ملازمة لتصرفات الحكام، وليست الرذائل التي هي من ذميم الأخلاق التي يلزم اجتنابها؛ فارتباط الأخلاق بالسياسة في

1- ابن عاشور: مصدر سابق، ج9، ص171-172.

شريعة الإسلام يحتم على الحاكم التزام الفضائل، والابتعاد عما يناقضها من الموبقات والرذائل، لأن مقصد السياسة عند المسلمين هو الحفاظ على مصلحة المحكومين في العاجل والآجل، ويؤدي التقريط في ذلك إلى الانحراف بالسياسة عن الشرع والابتعاد بها عن التعاليم السمحة لرسالة الإسلام.

### المحور الثالث: الأخلاق السياسية وخصائصها عند ابن الأزرق:

لقد اهتم الفقه السياسي عند المسلمين بالأخلاق، وألح على ضرورتها في إصلاح السياسة وترشيد أحكامها؛ فبرع جلّ الفقهاء الذين تصدّوا لهذه المسألة دراسة وتأليفا، خاصة في الغرب الإسلامي، حيث جدّوا في طلب أخلاق السياسة، ووجّهوا أقلامهم ومؤلفاتهم إلى الاهتمام بنصيحة الحكام والملوك، وهو الفنّ الذي عُرف فيما بعد باسم: مرايا الأمراء، أو نصائح الملوك، ويدخل ضمنه ما كتبه المرادي القيرواني في "الإشارة إلى أدب الإمارة"، وما خطّه الطرطوشي في "سراج الملوك"، وما سوّده ابن رضوان في "الشهب اللامعة في السياسة النافعة"، وما دوّنه ابن الأزرق في كتابه "بدائع السلك في طبائع الملك" وغير ذلك...

### أولا/ بيان أهم الأخلاق السياسية عند ابن الأزرق:

عقد عبد الله ابن الأزرق بابا سمّاه: "في الصفات التي تصدر بها تلك الأفعال على أفضل نظام". وهو يقصد بالأفعال: ما تقام به صور الملك ووجوده؛ وذلك غاية السياسة الرشيدة والتدبير الحسن.

جعلها - رحمه الله - في شكل قواعد، وأفرد لكل قاعدة منها بعضا من صفحات كتابه، ليرشد الملوك والحكام إلى ضرورة هذه الصفات في حراسة الدين وسياسة

الدنيا<sup>(1)</sup>، ولم يتوان في التدليل والاستشهاد على صواب رأيه بما نقله من كلام العلماء والحكماء؛ فكانت عشرين قاعدة: العقل، والعلم، والشجاعة، والعفة، والسخاء والجود، والحلم، وكظم الغيظ والغضب، والعفو، والرّفق، واللين، والتثبت، والوفاء بالوعد والعهد، والصدق، وكنم السر، والحزم، والدهاء والتغافل، والتواضع، وسلامة الصدر من الحقد والحسد، والصبر، والشكر<sup>(2)</sup>.

عبّر عنها - رحمه الله - باسم القواعد؛ فكان كل خلق بمثابة قاعدة مستقلة في السياسة، لها تأثيرها الإيجابي في تصرفات الملك أو الحاكم، وتخلف أيّ منها شأنه الإضرار بمصالح الأمة؛ فالقاعدة هي ما ينبغي أو يقوم عليه الشيء، وبذلك تكون السياسة المفتقرة للأخلاق الفاضلة بمثابة فيروس ينخر جسد الأمة، ويفقده مناعته بالتدريج، فتكون الأمة عرضة للهلاك وخراب العمران، بتخلفها عن القيام بواجب الشهادة على الناس.

ويوصلنا التأمل العميق في حال الأمة، والتقصي الدقيق لفترات القوة والضعف من تاريخها، إلى نتيجة مفادها: أن الأخلاق السياسية الفاضلة قوام الحكم الرّاشد، وأن الرّدائل سبب الدّل والخسران الذي أصاب الأمة، فأدت إلى ظهور الانحطاط في كثير من مجالات الحياة، وكانت السبب المباشر في سقوط دول وحضارات.

فجملة هذه الأخلاق أو القواعد عليها مدار السياسة وتصرفات الساسة؛ يلتزم بها

1- "حراسة الدين وسياسة الدنيا"؛ أكد على هذا المعنى جُلّ الفقهاء في تعريفهم للخلافة، وقد جعلوا أسمى مقاصدها تحقيق هذين المقصدين. انظر الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق عصام فارس الحرساني ومحمد إبراهيم الزغلي، بيروت، 1416هـ - 1996م، ص 13. وانظر ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1، 1423هـ، 2003م، ص 189.

2- ابن الأزرقي، أبو عبد الله محمد بن علي: بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق سامي النشار، دار السلام، مصر، ط 1، 1429هـ. 2008م، ج 1، ص 359-477.

الحاكم في رئاسة بني جنسه وإدارة شؤون الدولة، بما يحقق النفع ويدفع الضرر عن الجميع، ولا يختلف اثنان في حقيقتها وأهميتها لضبط علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وحماية المعاملات اليومية من الشوائب السيئة والمكدرات الظالمة.

ولقد أثنى الله - سبحانه وتعالى - على أخلاق نبيه الكريم - صلى الله عليه وسلم - فقال: **[[وإنك لعلی خلق عظیم]]** (سورة القلم: الآية 4)، وثبت أيضا أن المقصد الأسمى لرسالة الإسلام هو إتمام مكارم الأخلاق؛ قال الرسول - صلى الله عليه وسلم -: **((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))**<sup>(1)</sup>، وقال أبو ذر - رضي الله عنه - لما بلغه مبعث النبي صلى الله عليه وسلم: **قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله، فرجع فقال: رأيتَه يأمر بمكارم الأخلاق**<sup>(2)</sup>.

فلا بد للحاكم المسلم أن يستن بسنة النبي - صلى الله عليه وسلم - في السياسة والحكم، ولا يجوز له الإعراض ولا التغافل عن القواعد التي أرساها والمبادئ التي خطها في ضبط الأقوال وإدارة الأعمال السياسية، قال الله تعالى: **[لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا]** (سورة الأحزاب: الآية 21).

فهذه الأخلاق العشرين أو القواعد كما اصطلح عليها ابن الأزرق، أساس قوة الملك في الدنيا، ومنبع الحسن والبهاء في حضارة المسلمين، أيام عزهم وشهادتهم على العالمين؛ والمتفحص لسيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - يلحظ الحرص والتفاني في تعليم الحكام والمحكومين معاني الإنسانية السّمة في جميع المعاملات.

1- أحمد ابن حنبل: مسند أحمد، حديث رقم 8595.

2- محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، باب حسن الخلق والسّخاء وما يكره من البخل.

ثانيا/ خصائص الأخلاق السياسية عند ابن الأزرق: أرجع ابن الأزرق الأخلاق السياسية السابقة إلى جملة مقدمات، عليها مدار وقوام الفضائل أجمعها، ومنها يطلب تهذيب النفوس وعلاج سقمها؛ أحاول إجمالها فيما يلي:

أ - الأخلاق والناس (الأثر في النفس والتصرف): إن للأخلاق أثر في نفوس الناس، وفي التصرفات الصادرة عنهم؛ فالفضائل مردها إلى أخلاق حسنة، والردائل منبتها أخلاق ذميمة، وبذلك يتميز الناس نبلا وحقارة، رفعة ووضاعة، شهامة ونذالة.

جاء تعريف الأخلاق عند ابن الأزرق موافقا لما صرح به الحكماء؛ فقال . رحمه الله :: "الخلق ملكة تصدر بها عن النفس الأفعال بسهولة دون تقدم روية"<sup>(1)</sup>.

وقد سبقت الإشارة إلى تعريفي الغزالي وابن عاشور للأخلاق، وكلاهما يعتبر الخلق بهذا المعنى؛ ولا غرابة في اعتماد ابن الأزرق على ذلك، واستلهامه المقصود من كلام الحكماء، والهدف إرشاد الملوك إلى التحلي بالفضائل والابتعاد عن الردائل، لأنها صفات تؤثر في التصرفات، فيحسن بالمتصدي لسياسة الأمة التنبه والتفطن لذلك، حتى يصلح ولا يفسد، ويكون فعله في السياسة محمودا.

وهذا ما أكد عليه ضياء الدين الرئيس في معرض تعريفه للأداب السلطانية، فقال بأنها: "مجموعة التصائح والحكم والإرشادات العملية التي توجه إلى الملك أو الأمير أو الحاكم، تهديه إلى أن يجعل سياسته حسنة مع الرعية، وتبين له

1- ابن الأزرق: المصدر نفسه، ج1، ص357.

- لا تكاد تخرج تعريفات القدامى والمعاصرين للخلق عن هذا المعنى. انظر على سبيل المثال: ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق ابن الخطيب، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، ص. عبد المقصود عبد الغني: الأخلاق عند فلاسفة اليونان وحكماء الإسلام، مكتبة الزهراء، 1993م، ص11.

الطريقة التي ينجح به أو يستبقي بها ملكه"<sup>(1)</sup>.

حرص ابن الأزرق على ربط السياسة بالأخلاق في صفحات كتابه البدائع، ولم يدخر جهدا في توجيه سلوك الحاكم أو الملك إلى الالتزام بأحسنها والتمثل بفضائلها، حتى يضمن قوة دولته ودوام حكمه أو ملكه، بفضل رشاد السياسة والتدبير.

وذكر - رحمه الله - أن مراتب الناس بالنسبة للأخلاق أربعة، على نحو ما قسم الغزالي - رحمه الله -: "أحدها: الباقي على أصل الفطرة في الخلو من الاعتقادات، وفقدان التمييز بين الحق والباطل. ولم يبالغ شهوته في انقباض اللذات، فهذا سريع القبول، لتغيير خلقه في أقرب زمان. الثاني: العارف بقبح القبيح، مع الإصرار عليه انقياداً للشهوة، وإعراضاً عن الصالحات التي لم يتعودها، فأمره أصعب، لعسر مبلغ ما رسخ في نفسه من صبغة تعود الفساد، وصعوبة قبوله لتعود الصلاح، لكنه قابل للرياضة، أن أخذ فيها بصادق عزم. الثالث: المعتقد في القبيح أنه الواجب المستحسن، لرسوخه بذلك منذ أول النشأة، فعند ذلك صلاحه لا يرجى إلا على الندور لتضاعف أسباب ضلاله وخذلانه. الرابع: المستكثر من الشرور، الناشئ عليها اعتقاداً، أن التظاهر بذلك هو الفضيلة الرفيعة على قدر المشتهر بها، وفي مثله، قيل: من التهذيب تهذيب الرتب؛ فالأول جاهل فقط، والثاني جاهل وضال، والثالث جاهل وضال وفاسق. والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير"<sup>(2)</sup>.

**ب - قابلية الأخلاق للتقييم (المدح والذم):** تعتبر هذه الخاصية الفاصل بين

1- محمد ضياء الدين الرئيس: النظريات السياسية الإسلامية، مكتبة دار التراث، ط7، ص19.

2- ابن الأزرق: بدائع السلك، تحقيق سامي النشار، دار السلام، ج1، ص358-359.

- الغزالي: إحياء علوم الدين، ج3، ص56.

الأخلاق والغرائز؛ فقد سبق التذكير بأن آثار الخُلق قابلة للتقيّم وأما الغريزة فلا. فالملك لا بد له من معرفة هذه القضية، والإحاطة بها حتى تكون له مكنة التمييز بين خلقين؛ أحدهما: محمود. والآخر: مذموم. فيلتزم الأول ويتجنب الثاني.

والإنسان بصفة عامة يتنازع هذان الخلقان، وتكون صفته ومنزلته في المجتمع بحسب الغالب منهما؛ قال ابن الأزرق - رحمه الله -: "إن الإنسان مركب من خلق محمود يشبه بها الملك، قال الله تعالى: [[إن هذا إلا ملك كريم]] (يوسف: 31). وخلق مذمومة يشبه بها البهيمة أو الشيطان قال الله تعالى: [[وأولئك كالأنعام بل هم أضل]] (الأعراف: 179)"<sup>(1)</sup>.

واضح أن ابن الأزرق - رحمه الله - يرشد الحكام والملوك إلى ضرورة العلم بهذه المسألة، وعدم الغفلة عنها، لأن دور المتصدر للقيادة يتلخص في الإصلاح، والحرص على تحقيق الفلاح، والخطر كل الخطر في الغفلة عن ذلك، فتلتبس الأمور على الملك، حينها يصبح لا يفرق بين النافع والضار؛ فيدخل الفساد على مملكته، ويقع الظلم على مواطني دولته، بسبب فساد السياسة وانحرافها عن تحقيق المقاصد السامية للحكم.

وينبّه - رحمه الله - إلى خطورة انحراف أخلاق الملك عن الفطرة السليمة، فتتحول طباع الإنسان فيه إلى طباع سباع ضارية، والحاذق من عرف فلزم، ومن تدبّر فوعى، لأن السّياسي البارِع من يستطيع التزام الأخلاق الفاضلة في تدبيره، والذي له قدرة على كبت جماح الرذائل وصدّها عن أن تؤثر في تصرفاته؛ قال - رحمه

1- ابن الأزرق: بدائع السلك، تحقيق سامي النشار، دار السلام، ج1، ص357.

الله :- "... ومن ثم أن المسخ في الباطن واقع في هذه الأمة"<sup>(1)</sup>، ونقل عن ابن الحاج قوله: "أن الظلمة لا فرق بينهم وبين السباع إلا في الصورة الظاهرة، والمعاني جامعة بين النوعين"<sup>(2)</sup>.

ومن ثمة فإن الأخلاق فضائل وريثات، وتكون منزلة الحكام والملوك على حسب الغالب منها؛ فالفاضل من غلبت حسناته سيئاته، والريدي من تغلبت شهوته الحيوانية على فطرته السوية؛ ويؤكد الطاهر بن عاشور حقيقة قابلية الأخلاق للتقييم، فقال - رحمه الله :- "خُلق بضممتين: فهو السجية المتمكّنة في النفس، باعثة على عمل يُناسبها من خير أو شر، وقد فسّر بالقوى النفسية، وهو تفسير قاصر، فيشمل طبائع الخير وطبائع الشر؛ ولذلك لا يعرف أحد النوعين من اللفظ إلا بقيد يُضَم إليه فيقال: خُلق حسن، ويقال في ضده: سوء الخُلق، أو خُلق ذميم، فإذا أُطلق عن التقييد انصرف إلى الخُلق الحسن"<sup>(3)</sup>.

**ج - قابلية الأخلاق للتقويم (التغيير والتعديل):** إن الأخلاق التي يتصف بها الإنسان لها القابلية للتقويم والتعديل؛ فكل ابن آدم إلا وله مكنة السيطرة على هذه الصفات، ليرتقي بنفسه في هذه الحياة، ويجنبها ما يشينها من قبيح الرذائل والسيئات.

قال ابن الأزرق - رحمه الله :- "إن الأخلاق قابلة للتغيير بطريق الرياضة، على معنى ردها إلى الاعتدال"<sup>(4)</sup>.

1- المصدر نفسه.

2- المصدر نفسه.

- ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي: المدخل، دار الفكر، ج1، ص83.

3- ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتتوير، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس، ج9، ص171-172.

4- ابن الأزرق: بدائع السلك، تحقيق سامي النشار، دار السلام، ج1، ص358.



وأرشد - رحمه الله - إلى السبب الذي يمكن به تعديل الرذائل، وتقويم الأخلاق الذميمة، حتى يتأسى الملك بذلك، و يجتهد في ترقية أخلاقه، ويجد في طلب الفضائل؛ فقال: "أن السبب الذي به ينال تغيير الخلق المذموم أمران في الجملة: أحدهما: فطري لا كسبي إنما هو بمحض الجود الإلهي لمن يوجد كامل العقل، حسن الخلق معتدل الشهوة والغضب، عالماً من غير معلم، متأدباً من غير مؤدب، كالأنبياء عليهم السلام. الثاني: كسبي، وهو الرياضة المراد بها حمل النفس على عمل مقتضى الخلق المطلوب كتكف طالب الجود يتعاطى فعل الجود، حتى يصير له طبعاً ولا تكلف فيه. وكذا في سائر الخلق الحميدة"<sup>(1)</sup>.

**د - أصول الأخلاق الفاضلة:** إن لكل علم قواعد يقوم عليها، ولكل صفة في الإنسان أصول تستقى منها؛ ويرجع ابن الأزرق أصول الفضائل إلى ثلاثة أمور: الحكمة والشجاعة والعفة.

قال - رحمه الله -: "أصول الفضائل ثلاثة: الحكمة والشجاعة والعفة، ومجموعها العدالة؛ فالحكمة: الخلق الذي يصدر به الفعل المتوسط بين فعلي الحدة والغباوة، والشجاعة: الخلق الذي يصدر به الفعل المتوسط بين فعلي التهور والجبين، والعفة: الخلق الذي يصدر به الفعل المتوسط بين فعلي الفجور والخمود"<sup>(2)</sup>.

فكأنه يلفت النظر - رحمه الله -، ويوجّه الحكام والملوك إلى ضرورة التحلي بهذه الصفات، حتى يكونوا عدولاً في أخلاقهم، عادلين في سياستهم، ولتكون أخلاقهم وسياستهم في منزلة وسطى بين الإفراط والتفريط.

1- المصدر نفسه، ج1، ص359.

2- المصدر نفسه، ج1، ص357.

قال ابن القيم - رحمه الله -: "السياسة نوعان: سياسة ظالمة؛ فالشريعة تحرمها. وسياسة عادلة، تخرج الحق من الظالم الفاجر؛ فهي من الشريعة علمها من علمها وجهلها من جهلها"<sup>(1)</sup>. وقد أكد هذا التقسيم علاء الدين الطرابلسي في معينه وابن عابدين في حاشيته على الدر المختار<sup>(2)</sup>.

إن جماع الأخلاق التي حرص ابن الأزرق على توجيه الملوك إلى التحلي بها مردها إلى هذه الأصول الثلاثة؛ فلا عقل، ولا علم، ولا حلم، ولا سخاء من دون حكمة وشجاعة وعفة.

وقس على ذلك بقية الصفات العشرين التي ضمنها صفحات كتابه، وألح على ضرورة التزام الحاكم بها، لعلمه بأن الأخلاق الفاضلة أساس السياسة الصالحة، والسياسة الصالحة قوام الملك السعيد وأساس ازدهار عمرانه.

1- ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق محمد جميل غازي، مطبعة المدني، القاهرة، ص5.

2- الطرابلسي، أبو الحسن علاء الدين علي بن خليل: معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام، ص207.

- ابن عابدين، محمد أمين بن عمر: حاشية رد المحتار على الدر المختار، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، طبعة خاصة، 1423هـ، ج6، ص20.

## خاتمة

يمكن التأكيد في خاتمة هذا البحث على ما يلي:

\* برع أبو عبد الله ابن الأزرقي الأندلسي في كتابه "بدائع السلك في طبائع الملك"؛ وتتجلى براعته في القدرة على اختيار المصادر النفيسة وتلخيصها، حيث نقل عنها ما هو في حاجة إلى نقله حرفياً، وزاد في علو قيمته فتتويجه بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة، وكذا أقوال الحكماء والعلماء.

\* دقق ابن الأزرقي - رحمه الله - في ربط السياسة بالأخلاق؛ فأكد على ضرورة عشرين خلقاً للسياسة: العقل، والعلم، والشجاعة، والعفة، والسخاء والجدود، والحلم، وكظم الغيظ والغضب، والعفو، والرِّفق، واللين، والتثبت، والوفاء بالوعد والعهد، والصدق، وكرم السر، والحزم، والدهاء والتغافل، والتواضع، وسلامة الصدر من الحقد والحسد، والصبر، والشكر.

\* اتّسمت الأخلاق السياسية عند ابن الأزرقي بعدة خصائص، تميّزاً لها عن بقية الأخلاق الإنسانية، ولقد اجتهد - رحمه الله - في الرّبط بينها؛ فجعلها في صورة مقدمات، بها قوام هذه الأخلاق وعليها مدارها.

\* أرشد - رحمه الله - السّاسة (الحكّام والملوك) إلى ضرورة الأخلاق للإنسان، وبيّن أنّ الفضائل ميزان التفرقة بينه وبين الوحوش الضّارية.

\* نبّه - رحمه الله - إلى أنّ الأخلاق قابلة للتّقيّم والتّقويم؛ فوجّه الحكام والملوك إلى ضرورة مراجعة صفاتهم، والالتزام بتعديل ذميمةا، والعمل على اجتناب الرذائل فيها.

\* أرجع - رحمه الله - فضائل الملك وأصول أخلاقه إلى ثلاثة أمور: الحكمة

والشجاعة والعفة.

هذا وأوصي الباحثين في مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية الاهتمام بتراث أعلامنا، لأنّ فيه الكثير من الأفكار والآراء، التي يمكن أن تسهم في نهضة الأمة وازدهارها، وعودتها إلى رشدها من جديد.

[... وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ]] (سورة هود: الآية 88)

## مصادر ومراجع البحث:

- ابن الأزرقي، أبو عبد الله محمد بن علي: بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق سامي النشار، بغداد، 1977.
- ابن الأزرقي، أبو عبد الله محمد بن علي: بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ليبيا. تونس، ج1، مقدمة المحقق.
- ابن الأزرقي، أبو عبد الله محمد بن علي: بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق سامي النشار، دار السلام، مصر، ط1، 1429هـ-2008م.
- ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي: المدخل، دار الفكر.
- ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق محمد جميل غازي، مطبعة المدني، القاهرة.
- ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ، 2003م.
- ابن عابدين، محمد أمين بن عمر: حاشية رد المحتار على الدر المختار، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، طبعة خاصة، 1423هـ.
- ابن فارس، أبو الحسن أحمد: معجم مقاييس اللغة، ت محمد عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ.
- ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق ابن الخطيب، مكتبة الثقافة الدينية، ط1.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1.

- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: مفردات غريب القرآن، ت محمد سيد كيلاني، دار المعرفة.
- ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
- الطرابلسي، أبو الحسن علاء الدين علي بن خليل: معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق عصام فارس الحرستاني ومحمد إبراهيم الزغلي، بيروت، 1416هـ - 1996م.
- ضياء الدين الرئيس: النظريات السياسية الإسلامية، مكتبة دار التراث، ط7.
- عبد الأمير شمس الدين: الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرقي.
- عبد المقصود عبد الغني: الأخلاق عند فلاسفة اليونان وحكماء الإسلام، مكتبة الزهراء، 1993م.
- عبدالرحمن حبنكة الميداني: الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، سوريا، ط5، 1420هـ - 1199م.